49- ابن مريم، المصدر السابق، ص 228.

50- التنبكتي، المصدر السابق، ص 304، الزياني، المصدر السابق، ص 39.

51- عثرنا على شخصية تدعى الطاهر المشرفي، تعود إلى العهد العثماني في الجزائر، ومما جاء في تعريفها: "الطاهر بن
القادر بن عبد الله ابن محمد المدعو ابن دحو المشرفي المعسكري، العلاّمة الجليل، قاضي وهران ودفينها على
الترك، وشارح "النصيحة الزروقية..." أنظر: عبد الحي ابن عبد الكريم الكتاني، فهرس الفهارس والأثبات ومعـ
المعاجم والمشيخات والمسلسلات، إعتناء إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، المجلد الأول،
466. وهو غير الشيخ المشرفي الذي ذكر في المتن.

52- كل ما عثرنا عليه أنّ هذه الشخصية مدفونة قرب بلدة بوتليليس إلى الغرب من وهران على بعد حوالي 30
عليها قبة، وهي مزار لسكان المنطقة وضواحيها.

53- د/ مختار بوعناني، المرجع السابق، ص 24.

54- ابن صعد، المخطوط السابق، و94ظ، ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص 448، المزاري، المصدر السا
ص 71.

55- أنظر كلا من: ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، الصفحة السابقة، والمزاري، المصدر السابق، الصفحة السا

56- ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، الصفحة السابقة، الزياني، المصدر السابق، ص 42

57- راجع المزاري، المصدر السابق، هامش صفحات 71، 72، 73.

الكولون الفرنسيون والتعليم الفلاحي في الجزائر.

أ / عبد القادر حلوش*

عندما تبنت الإدارة الفرنسية سياسة تعليمية[1] بعد تغييب طويل للحياة الثقافية، تحرك الكولون الفرنسيون ممثلين في صحافتهم المتطرفة لعرقلة هذا المشروع- رغم طابعه التجهيلي والاستعماري- الذي دافع عنه الجمهوريون منذ 1871م بحماس شديد بتأسيسهم للمدرسة الجزائرية القادرة على تحقيق الإدماج وربط الجزائر[2] بفرنسا في جميع المجالات، مطالبين في المقابل بإقامة التعليم الفلاحي الذي يخدم مصالحهم ومصالح المستعمرة القائمة أساسا على استغلال البلاد والعباد.

الحقيقة أن الكولون لم يكونوا يرضون لا بالتعليم النظري ولا التطبيقي الذي شددوا عليه في مطالبهم، وهذا الموقف من الكولون ليس إلا محاولة منهم لإخفاء رفضهم المطلق والكلي لتعليم الجزائري مهما كان نوعه واتجاهه، وقد عبروا عن هذا الرفض في مناسبات عديدة وقدموا لذلك حججا متعددة، عنصرية، مالية سياسية تقليدية.

---

* أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بقسم التاريخ، جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس.

لقد اشتدت مطالب الكولون وإلحاحاتم لفرض التعليم التطبيقي والفلاحي عن أواخر القرن التاسع عشر لأن الكولون يحتكرون الأرض، ويستغلون ثرواتها الزراع ويريدون في النهاية استغلال أصحاب هذا أنفسهم بتشجيعهم للأعمال الفلاحية حتى ي لهم السير قدما في هذا المجال الذي يعتبر مصدر رزقهم الأول في الجزائر .

وبعد إلحاح الكولون على هذا النوع من التعليم ومعارضتهم المطلقة للتعليم النظ الذي تبنته الإدارة الفرنسية (الجمهوريون) بهدف خلق وسط[3] مشبع بالثقافة الفرنسية و على توظيفها لجر السكان الجزائريين في هذا المسار والمنحى الذي يخدم الإدارة الاستعمار مجمله، وبالتالي الإسهام التغلغل الاستعماري استطاعوا (الكولون) تحقيق مطالبهم باتجاه بر 1898م التي تعرضيهم، أي إدراجهم لمواد تطبيقية في مادتها العلمية، والملاحظ أن المدر الفرنسية في الجزائر كانت ذات اتجاهين متعارضين أو بالأحرى كانت توجد مدرس مدرسة نظرية من وحي الجمهوريين، وأخرى تطبيقية بإيعاز من الكولون، واستمر الصراع هاتين المدرستين إلى أن تغلبت المدرسة "الكولونيالية " التي استطاعت أن تخضع التعليم المو للجزائريين إلى إرادتها وإشرافها، بعد أن تم استحداث الوفود المالية **légations Financières** واستغلال مزنية الجزائر عن المتروبول، الشيء الذي يعبر بدون شك عن الكولون في تسيير دفة أمور المستعمرة إلى الوجهة التي ترضيهم، خاصة وأنهم يعرفون خف وأسرارها لأنهم يعيشون فيها بخلاف الجمهوريين الذين كانوا يوجهون سياستهم الاستع والتعليمية خاصة من باريس عن واقع الجزائر.

وإذا كانت وسائل كل مدرسة تختلف عن الأخرى باعتماد الأولى على الجانب النظ والثانية على الجانب التطبيقي مظهريا، فإنهما يلتقيان ليصبا في النهاية في غاية واحدة مشتر هي القضاء على العنصر الوطني وإخضاع الجزائر لسيطرتهم الكاملة (4) والتعليم اليدوي المهني أو الفلاحي الذي به الأوربيون في الجزائر لايفهم منه التعليم الذي يساعد العن

الوطني (الجزائري) في الحصول على مهنة أو اكتساب حرفة ترفعه إلى مستوى الحرفيين والتجار الأوربيين بقدر ما هو في حقيقته محاولة من الكولون لتكوين يد عاملة محلية وجاهلة تملك المبادئ الأولية البسيطة في الثقافة، وتستطيع من خلالها موازنة ومنافسة، بل وتحدي اليد العاملة الأوربية في المستعمرة المتكون أساسا من الأسبان والإيطاليين التي لاتقبل بيع طاقتها الإنتاجية بأثمان زهيدة.

إلى جانب ذلك فهذه اليد العاملة الأوربية لا يمكن أن تقبل بمستواها الاجتماعي والاقتصادي المتدني بالمقارنة مع الفرنسيين، بل كانت دائما لا تتساوى مع المواطن الفرنسي في الحقوق والواجبات، ومن هنا فالتعليم التطبيقي الذي نادى به الفرنسيون هو الذي يهدف إلى تطوير الفلاحة في الجزائر على أكتاف الجزائريين وبسواعدهم لصالح الأقلية من الكولون، وذلك بتشجيع منتوجاتهم الزراعية " التصديرية " إلى الميتروبول وتحقيق الأرباح المادية.

كما أن وجود طبقة عاملة وطنية رخيصة يساهم على المدى البعيد في تشجيع الهجرة الأوربية إلى المستعمرة الجزائرية، وتثبيت السيطرة (الكولونيالية) على مقدرات البلاد الإقتصادية لأن الكولون لا يمكنه الإستفادة من الأرض بشكل جيد ومثمر في غياب العنصر المحلي الذي يمثل أحد ركائز نجاحه وتقدمه. كما أن وجود العامل الجزائري أو بالأحرى الفلاح الجزائري في هذه المعادلة الإنتاجية لا يعدو أن يكون مساهمة في تحسين وتطوير قدراته العملية بقدر ما يهدف هذا النوع من التعليم أساسا إلى دمج الأوربيين في هذا الصراع لاستغلال الأرض الجزائرية والتمسك بها، وذلك بتشجيعهم على البقاء في الجزائر واتباع سلوك أجدادهم في استثمار الأرض واستغلال خيراتها، خاصة وأن هذه الفترة شهدت اهتمام أبناء الأوربيين بمتابعة الدراسات الثانوية والعالية[5] في الجامعات والعدول عن الفلاحة والأرض. وبهذا فالتعليم الفلاحي يخص الأوربيين وأبنائهم وحدهم قبل أن تكون لخدمة الجزائريين، واهتمامه بالجزائري لا يكون بالقدر الذي يربطه دائما بالكولون كعامل إنعاش

للإقتصاد الأوربي حتى لا يشكل هؤلاء الفلاحون "بروليتاريا أهلية" تصبح خطرا كبيرا على نفوذهم وتهدد مستقبل المستعمرة بأكملها، وذلك إدراكها لعلاقات الإنتاج الإستغلالية الت تربط الأوربيين بالجزائريين. ولم يخف الأوربيون ذكر الفائدة التي يجنونها من وراء تطو التعليم الفلاحي بقولهم: "إن تطوير التعليم المهني الفلاحي لدى الأهالي يعني خدمة مصالحه ومصالحنا، ولكن سيكون لصالحنا أكثر من مصالحهم"[6].

إلى جانب ذلك، ومن خلال اعتماد التعليم الفلاحي يستطيع الكلون الأوربيون تخف غاية وميزة أخرى تكمن في إبعاد الجزائريين عن الإحتكاك والإتصال بالمدن والمراكز الحض والعمل بها. فكثير ماظهرت احتجاجات الأوربيين المسيطرين على مقدرات المدن الجزائ الرئيسية والبلاد برمتها ضد المنافسة التي يبديها الجزائرون إذا ماتابعوا تعليمهم النظري للسيطرة على بعض الوظائف في الميادين الإجتماعي والإقتصادي في المدن كالعمل في التجا والوظائف الثانوية في الإدارة الفرنسية (كتاب ترجمانات، شواش...) وفي التجارة المؤسسات الصناعية والنقل والسكك الحديدية وغيرها. ومن هنا كان موقف الأوربيين رفض المدرسة النظرية (مدرسة جون مير) للجزائريين بدعوى أنهم سيصبحون متنصلين، أي يتركو قراهم ودواويرهم للتوجه إلى المدن قصد البحث عن شغل أو عمل يضمن قوتهم. فكا عرض موضوع تعليم الجزائرين للتداول بشتى أنواعه وأشكاله، والنظري منه خاصة، طر هؤلاء الأوربيون فكرة "التنصل"**Déclassement**.

ويعتقد الأوربيون أن ظاهرة "التنصل" الخطيرة على مناصبهم ومستقبلهم في المد والمستعمرة بأكملها، لايكمن معالجتها إلا بتطبيق التعليم الفلاحي الذي يعمل على تثبي الجزائري في الحقول والأرياف، وذلك لوضع حد "للتريف الريفي" على المدن الأورب وإبعادهم (الجزائريين) عن النشاطات الإقتصادية والإجتماعية التي صنعت ثورة الكولو لكنها ظلت من احتكارهم لوحدهم. وإذا كان التعليم اليدوي والتطيقي عامة في المدار

الفرنسية يرجع إلى سنة 1882 م، فإن الأقسام "الأهلية" الخاصة بالجزائريين لم تعرف هذا النوع من التعليم إلا أواخر القرن التاسع عشر، بالرغم من أن الجزائريين أنفسهم لم يكونوا أبدا معرضين للتعليم الذي يضمن مناصب شغل[7]. فمن 1889 إلى 1901م طالب أعيان منطقة القبائل مثلا باعطاء أبنائهم التعليم المهني، لأن التعليم النظري أصبح لايناسبهم ولا يجلب لهم الفائدة مادام أنهم لا يستطيعون الإلتحاق بالوظائف الإدارية في المستعمرة ولا احتكار الأوربيين لها (لأنه مستعمرة استيطان) ورفضهم لأن يتولى العنصر الوطني مثل هذه المهام[8] وكثيرا ماقدم أولياء التلاميذ للأسباب التي شرحناها "ما الفائدة من معرفة مرتفعات الهيمالايا ووجود جانه دارك؟، لانريد أن نجعل من أطفالنا علماء"[9] وفي 1901م تأسست خمسة أقسام للتعليم اليدوي أضيفت إلى الأربعة الموجودة سابقا[10] وفي هذا الشأن أكد المستشار العام لمدينة بجاية أنه من الخطأ تأسيس مدارس أهلية، وأن الحل يكمن في "تعليم نظري مادي" ويقصد به التعليم المهني. وللوصول إلى تحقيق هذا النوع من التعليم طالبت الوفود المالية الناطق الرسمي للكولون بنقل إدارة المدارس الأهلية من مدير التربية جون مير وتحويلها إلى البلديات، ولكنه عارض هذا المشروع "الكولوني" معتبرا إياه بأنه عبث صبياني عندما طالبه وزير التربية والتعليم الفرنسي في 1898م بتغيير برامج المدارس الأهلية لإعطائها "طابعا تطبيقيا وأكثر خصوصية" نزولا عند رغبة الكولون، خاصة بعد استقلال في تسيير شؤون المستعمرة. وخلاف ذلك كان مدير التربية جون مير الذي يعكس فكر الجمهوريين، يركز على الجانب النظري الذي يعقد على تدريس اللغة الفرنسية فبعض المواد المبادئ الأولية، قصد تكوين "نخبة" مثقفة مشبعة بالثقافة الغربية مقام الأوربيين في فرض الهيمنة الاستعمارية لقدرتها على اختراق جدار الأسر والقبائل لأنها تمثل أحد أطرافها والواقع أن كلا من الجمهوريين والكولون كان يدافع عن مشروع استعماري واضح المعالم وإن اختلفا في طرق ووسائل تجسيده وتطبيقه. فالأول من خلال جانبه النظري، أما الثاني فمن جانبه التطبيقي.

وإذا كانت برامج سنة 1898م قد أولت اهتماما واضحا بالأمور التطبيقية والجوا اليدوية في البرمج التعليمية للمدارس الأهلية، إلا أنها لم تستطيع أن تغير من الطابع النظر للتعليم الجزائري. فلم ينل التعليم التطبيقي في هذا البرامج سوى ساعتين ونصف في القس الإبتدائي وثلاث ساعات في القسم المتوسط[11]. وكانت أصوات الكولون تطالب في ك مناسبة بتطبيق التعليم المهني والفلاحي على الخصوص، وذلك للفلاحين بتاريخ 1898/12 طالب هذا الأخير أولا بتمويل قسم نظري من التعليم الموجه للجزائريين على قسم تطبيق ليصبح مهنيا وأكثر من ذلك فلاحيا، واقترح من جانب آخر تكوين "ممرنين خاصين يتولون إعطاء التعليم التطبيقي لاغير ويكلفون بتعليم التلاميذ الطرق الفلاحية ويشرحو للفلاحين بعض المبادئ حول الفلاحة بشكل عام، بمعنى جعل المدرسة والمحيط في خد الفلاحة. كما أصبح التعليم الفلاحي يشكل فرعا مستقلا تحت إدارة المفتش رولان **Roland** لتخريج اليد العاملة المحلية قصد تنشيط الفلاحة الأوربية وبموجب ذلك تأسس بعض المدارس الفلاحية[12] في كل من تاوريت، اولاد ميمون، عمي موسى، مازونة، مدرس بن شكياو **Ben chicao** التي يتم فيها إعطاء التعليم الابتدائي الفلاحي. ولم يكن هذا النو من التعليم الذي دافع عنه الكولون بكل قوة يهدف إلى الإلمام بجميع أوجه الحياة الفلاحية وإنما ارتكز على تكوين فلاحين محليين مختصين في أعمال الكرمة التي كانت إلى هذه الفتر من اختصاص واحتكار المزارعين الأسبان الذين غزوا المنطقة الغربية للبلاد.

وكان الإقتصاد الأوربي في الجزائر قد بدأ يهتم بغرس الكرمة لتصدير خمورها إل الميتروبول، ومنافسة الجنوب الفرنسي الغني بهذه الزراعة. وبات واضحا أن التعليم في الجزا مرتبط ارتباطا وثيقا بضرورات الإستعمار وما تمليه المصالح الأوربية دون أدنى مراعاة خ الجزائريين في التعليم والتكوين.

ولما كانت الصناعة وثيقة الصلة بالفلاحة فقد عرفت هي الأخرى ركودا صارخا باستثناء بعض المدارس التي أسستها الإدارة الفرنسية لتعليم الأطفال الجزائريين بعض الصنائع المحلية في بلاد القبائل، [13] والعاصمة وتلمسان، حيث يتلقى الطلبة وبعض الطالبات صناعة الخزف ونسيج الزرابي والتطريز على الجلد والخياطة، فإننا نجد المدارس الصناعية تكاد تكون خالية من العنصر الوطني. وينتشر التعليم الصناعي الإبتدائي الرسمي بواسطة مدرسة التعليم الصناعي بمدينة دلس التي تأسست عام 1880م، والغاية منها تكوين صناع أوربيين. أما التعليم الثانوي الصناعي فيعطي بواسطة (المدارس التطبيقية الصناعية) وهي ثلاث مدارس: الجزائر وقسنطينة ووهران وحظ الجزائريين فيها معروفا. غير أن التعليم العالي الصناعي في الحراش، وله أهمية كبيرى، وينال المتخرج منه شهادة مهندس، إلا أنه يخص أبناء الأوربيين وحدهم. أما الأعمال التجارية فكانت من احتكار بعض الأيدي الأوربية في حين ظل الجزائريون وأبناءهم عرضة للشقاء والبؤس ومعرضين للأمراض والفقر في شوارع المدن وقراها.

والواقع أن الكولون الذين يعبرون عن الشعور العام للمستعمرة، وإن لم يكونوا هم الأسياد الحقيقيون لها، فكانوا دئما معارضين لتعليم الجزئريين سواء كان تعليما نظريا أو تعليما تطبيقيا، بل أن "فيتوهاتهم" مست كل ما من شأنه الرفع من مستوى الجزائريين وخدمتهم.

الهوامـــــش:

1- يعد قانون فبراير 1883 م البدية الفعلية لتنظيم في الجزائر، في حين ظلت فترة خمسين سنة السابقة عبارة عن محاولات وسياسات فاشلة للوصول إل وضع تعليم لا يغضب الأوربين ويحقق بعض طموحات الجزائريين في التعليم والتكوين، لكن قانون 13 فبراير طبق على الجزائريين من جانبه التجهيلي حيث ظلت نسبة تمدرس الجزائريين جد ضئيلة عند الذكور ومنعدمة تماما عند الإناث.

2- يعد المعلم آخر الحلقة في العملية الإستعمارية التي افتتحت فرنسا فصولها بالجندي والفلاح لطمس الشخصية الجزائرية وربطها بشخصية مغايرة عنها شكلا ومضمونا. فالغزو الثقافي هو استكمال للغزو العسكري الذي باشرته منذ 1830 م.

3- بعد ثورة المقراني لعام **1871** م قام معارضو تعليم الجزائريين بإغلاق معظم المدارس العربية الفرنسية التي أنشأ مراسيم **1850** م بدعوى أن تلامذتها كانوا من جملة المشاركين في الثورة، إلى جانب ذلك كان الإحتلال قد شرد دو الفكر والرأي وشتت العائلات المتنفذة والخيام الكبرى التي كانت تلعب دور الوسيط بين المجتمعين: الجزائري والأورو وأمام هذا الفراغ الذي تركه هؤلاء فكرت إدارة الإحتلال في بديل تكونه على طريقتها وبأسلوبها وتشبع بثقافتها العربي فكان هذا البديل هو ماعرف في الأدبيات الإستعمارية بجماعة "النخبة".

4- بالرغم من اختلاف الطرفين (الجمهوريون والكولون) في الكثير من أمور المستعمرة، إلا أنهما كان يعودان إلى الإئتلا والتحالف عند ظهور الخطر الوطني كما اعتادوا على تسميته.

Borgeand, G.H: De l'enseignement agricole en France et en Algérie ,1882, p5. -5

Bulletin de l' enseignement, n° 146, p89. -6

Bulletin de l enseignement des indigènes, supplément , 1893, p.14. - 7

8- الواقع أن التعليم النظري كان من جانب آخر يحرم الفلاحين من مساعدة أطفالهم، فلهذا طالبوا بالتعليم الفلاحي دو النظري

Ageron ,CH R. Les Algériens Musulmans et la France t. II p. 932 -09

10 - بموجب المادة من مرسوم **1892/10/16**، أوكلت هذه الأقسام، إلى مدريسن- عمال **Maîtres ouvriers** . أو إلى ممرنين يخضعون لرقابة مدراء المدارس الفرنسيين، غير أن هذه التجربة ظلت صعبة التحقيق.

11- إلى جانب ذلك تم استحداث امتحان تطبيقي (تمرين فلاحي أ عمل يدوي) في شهادة الدراسات الابتدائية الخاص بالجزائريين التي أسسها مرسوم **1883** م.

12- أطلق عليها اسم مزارع - مدارس (**écoles-Fermes**)، منذ سنة **1892** م فرضت مديرية التربية تخصيص قطعة أرض فلاحية للأعمال التطبيقة.

13- لم يكن الإهتمام الفرنسي بهذه المنطقة دون غيرها من باب الحب لسكانها وإنما لتمرير مشروع خطير يهدف إلى بلب المجتمع الجزائري وزعزعة وحدته. للمزيد من الإطلاع أنظر مقالنا حول السياسة التعليمية في منطقة القبائل في العدد الأو من مجلة "أبحاث في التاريخ والتراث " الصادرة عن قسم التاريخ - جامعة وهران- ديسمبر **1996**م.

باندونغ،
بداية يقظة

د. عبد القادر خليفي *

كانت الحرب العالمية الثانية نكبة على العالم كله، فقد دارت رحاها في عدة مناطق من العالم، في أوربا وشمالي إفريقيا والشرق الأقصى.

وكان طرفاها الدول الكبرى آنذاك: دول الحلفاء ودول المحور، ورغم أن شعوب إفريقيا وآسيا لم تكن طرفا في هذا النزاع، إلا أنها شاركت في هذه الحرب بطريقة أو بأخرى نتيجة تواجدها تحت سيطرة الدول الأوربية الاستعمارية.

فقد سُخِّرت إمكاناتها الإقتصادية والبشرية لصالح هذه الدول، فنهبت منتجاتها ومدخراتها لتمون بها الجيوش المحاربة، كماجند أبناؤها رغما عنهم أو أملا في كسب الحرية والإستقلال بعد نهاية الحرب.

إلا أن نهاية الحرب لم تكن لصالحها. فإذا كانت بعض شعوبها قد حصلت على استقلالها كالهند وباكستان وسوريا ولبنان، فإن بقية الشعوب ظلت ترزح تحت نير الإستغلال والعبودية.

---

* أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بقسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران وباحث بمخبر البحث التاريخي " مصادر وتراجم ".